مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 26 عدد: 5 (رت 67) السنة: 2022

صور من التأثير العلمي للرّحالة الجزائريين في البلاد التونسية خلال القرنين 17 و18م

Pictures of the scientific influence of Algerian travelers in Tunisia during the 17th and 18th centuries AD

فتيحة مرزوق[1]
مخبر المؤسسات الجزائرية عبر التاريخ جامعة خميس مليانة (الجزائر)
fatiha.merzoug@univ-dbkm.dz
نور الدين شعباني
مخبر المؤسسات الجزائرية عبر التاريخ جامعة خميس مليانة (الجزائر)
nourchabani@yahoo.fr

تاريخ الوصول 2021/02/19 القبول 2022/02/27 النشر على الخط 2022/06/05
Received 19/02/2021 Accepted 27/02/2022 Published online 05/06/2022

ملخص:

شهدت الجزائر هجرة عدد كبير من علمائها نحو البلاد التونسية في العهد العثماني لاسيما في القرنيين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين (17-18م) إما بغرض أداء فريضة الحج، أو للاستزادة من العلوم والمعارف، ولقاء المشايخ والأخذ عنهم، أو غيرهما من الدوافع والأسباب الكثيرة التي حددتها طبيعة الهجرة آنذاك، وقد أسهم هؤلاء الأعلام أثناء تواجدهم بالمدن التونسية بدور فاعل في إنعاش الحياة العلمية وإنمائها، عن طريق تصدر حلقات الدروس في رحاب جامع الزيتونة وغيره من المؤسسات التعليمية المشهورة، وتقديم الإجازات العلمية للطلبة، وحضور المجالس العلمية ومناقشة أقرانهم من الفقهاء والعلماء في مختلف المسائل الفقهية، والعديد من القضايا التي تخص الأمة.

ونهدف من خلال هذه الدراسة إلى رصد أهم تلك الشخصيات التي ارتحلت إلى تونس، والتعريف بمجهوداتها التي بذلتها في سبيل تطوير الحركة العلمية وازدهارها، فضلا عن دورها البارز في إرساء التواصل الثقافي والفكري في مجتمع بلاد المغارب خلال الفترة الحديثة، لا سيما في ظل التراجع الذي عرفته مؤسسات الدولة العثمانية وعجزها عن مواكبة النهضة الأوروبية في شتى مجالات الحياة.

الكلمات المفتاحية: الجزائر، الحج، الرحلات، الإجازات، العهد العثماني.

Abstract:

Algeria witnessed the migration of many scholars to Tunisia during the Ottoman period either for the Pilgrimage (Hajj), or to acquire more knowledge and wisdom from scholars. During their presence in Tunisian cities, they have played an active role in the development of scientific life, conducting seminars around the Zaytouna Mosque and other known institutions, offering scientific licenses to students, participating in scientific councils and discussing with their peers on various jurisprudential issues that concern the nation. Through this study, we aim to present the famous academics who emigrated to Tunisia and highlight their efforts to develop the scientific movement, as well as their leading role in establishing cultural and intellectual communication in Maghreb society during the modern period, especially in light of the decline that has witnessed the institutions of the Ottoman Empire and its inability to keep pace with the European renaissance in various fields of life.

Keywords: Algeria, Hajj, travel,vacations, the Ottoman era.

[1] المؤلّف المراسل: **فتيحة مرزوق** البريد الإلكتروني: **fatiha.merzoug@univ-dbkm.dz**

1. مقدمة:

استقبلت البلاد التونسية في الفترة العثمانية وخصوصا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين عددا كبيرا من الرّحالة الجزائريين الذين هاجروا من بلادهم واستقروا في مدنها المختلفة بصفة مؤقتة أو دائمة، نظرا للتقارب الجغرافي، والوحدة الثقافية الأصيلة التي طبعت المجتمعين من أقدم عصورهما، فضلا عن المكانة المتميّزة التي حظيت بها تونس منذ قرون خلت، واحتضانها لأرقى المعاهد التعليمية والثقافية المتواجدة في بلاد المغرب الإسلامي على الإطلاق، وتشكيلها أيضا نقطة عبور إلزامية في طريق قوافل الحج المغاربية برّا وبحرا، وقد ظهر نشاط هؤلاء المثقفين الوافدين عليها بصورة واضحة ولافتة، فمنهم من انصهر في بوتقة مجتمعها وعقب بنين وحفدة، ومنهم من مكث فيها فترة من الزمن ثم غادر، وكلا الطرفين ترك أثرا عميقا على الحياة العلمية في تلك البلاد ونواحيها.

وعليه فإن الإشكالية العامة التي يعالجها هذا الموضوع تتمحور حول طبيعة الوجود العلمي الجزائري، وانعكاساته على الحياة الفكرية في البلاد التونسية، ومن خلال البحث في جوانب هذه الإشكالية حاولنا الإجابة عن التساؤلات التالية: من هؤلاء العلماء الجزائريون الذين استهوتهم البلاد التونسية فحطوا الرحال بها؟ وما الظروف والدوافع التي استوقفتهم بالمدن التونسية خلال القرنين 11 و12 الهجريين (17 و18م)، وفيم تجلى تأثيرهم العلمي؟ وكيف أسهمت هذه النخبة في تفعيل الحراك الثقافي هناك؟

وقد حاول بعض الباحثين والدّارسين التعرّض لمثل هذا الطرح مثل الورقة البحثيّة لحاج بن فطيمة فتيحة الموسومة "بالكتابة التاريخية في العهد العثماني : كتابات الرحالة أنموذجا"؛ وهي دراسة بيبليوغرافية للرصيد الرحلاتي للجزائر العثمانية، وإن كانت مهمة جدا كونها اختصرت الطريق للباحثين في أدب الرحلة وبالتالي يمكن تثمينها في مثل هذه الدراسات بما فيها دراستنا هذه، غير أن الباحثة أهملت الحديث عن الجانب المعرفي الخاص بجغرافية الرحلة وعلاقاتها بتونس ومدى تدخل العوامل الإثنية والمذهبية الدينية، إذا اعتبرنا خطوطا أخرى برية تعلقت بالانتماء الطرقي وأخذت طريقا آخر أو رحلات الإباضية التي سلكت طريق جبل نفوسة وغيرها من العوامل الجغرافية، كما نجد دراسة الباحث بوتدارة سالم في بحثه الموسوم "بتجليّات التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس من خلال رحلات علماء توات في القرنين17– 18م" الذي تميّز بإبراز الجانب الشخصاني في الرحلة بالتركيز على العلماء الذين ارتحلوا إلى تونس سواء دونها أم لا؛ ورغم تركيزه على توات فلم يجد الباحث مدونات خاصة بالرحلات سوى إشارات في كتب من ترجم لهم .

وتبقى هذه الورقة البحثية محاولة لفتح مجال جديد في البحث العلمي يتناول التعامل النصي مع التدوين التاريخي للرحلات إلى الجانب المعرفي الذي يعتمد أصولا مصدرية غير كتب أدب الرحلات نفسها، بما في ذلك إشارات الرحالة في كتبهم التي ألفوها وأشاروا على تجاربهم العلمية ومذكراتهم الشخصية؛ مثل كتب الفقه والنوازل، والأثبات والإجازات والفهارس.

وأمّا بخصوص المنهج المتبع في هذه الدراسة فكان المنهج التاريخي القائم على جمع المادة التاريخية التي تخدم الموضوع ونقدها وتحليلها، إضافة إلى المنهج المقارن الذي مكننا من ملاحظة الفروق في المستويات الثقافية بين البلدين من خلال رحلة العلماء.

2. دوافع الرحلة الجزائرية إلى تونس:

من خلال تتبع مسار الهجرة الجزائرية نحو الإيالة التونسية في تلك الفترة وجدنا أنها ارتبطت بعوامل مختلفة ودوافع عديدة، نذكر من أبرزها:

1.2 . الدافع الديني:

اعتاد العلماء الجزائريون في العصر الحديث على التّرحال إلى بلاد الحرمين الشريفين لأداء فريضة الحج بوصفها ركنا أساسيا من أركان الإسلام، واستجابة لقوله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[1]، فرغم المسافات الطويلة ومشقة السفر ومخاطره نحو بلاد الحجاز فإن ذلك لم يثن من عزائم الحجاج الجزائريين، ولم يضعف من هممهم لزيارة الكعبة الشريفة، ورؤية المآثر الحجازية في مكة والمدينة، وكل المواقع التي انطلقت منها الرسالة الإسلامية، فكانت قلوبهم إلى البقاع المقدسة تسبق أرجلهم وخيالهم يتجاوز مرمى أبصارهم[2].

وقد شكلت البلاد التونسية بحكم موقعها الاستراتيجي نقطة عبور ضرورية لموكب الحجاج الجزائريين، وإحدى أهم المحطات الرئيسية التي يتوقف عندها الحجاج المغاربة عموما في طريق رحلتهم إلى أرض الحجاز ذهابا وإيابا، فيغتنمون فرصة تواجدهم ببعض المدن مثل توزر وقابس من أجل التزود بالماء والمؤونة[3]، وشراء العلف للدواب، وزيارة بعض الزوايا وأضرحة الأولياء والصالحين في عاصمة الإيالة، وفي ذلك ينشد الحاج الجزائري ابن مسايب قائلا[4]:

قُمْ يَا طيرْ ادْخل تُونَس زُرْ البَاجِي وَبن يُونـــسْ
تْبَاتْ طُول اللّيل مونّس بِهِم النَّفـــــس تْسَلِيهَا

2.2 الدافع العلمي:

اشتهر الجزائريون في الفترة العثمانية بكثرة رحلاتهم نحو المشرق الإسلامي للتحصيل والدراسة والسعي وراء الإجازات العلمية باعتبار أنّ المدن المشرقية كانت يومئذ منبعا للثقافة والعلم والفكر، ومع هذا فإن تونس لم تقِل أهمية عن نظيراتها في بلاد المشرق، إذ كانت تعد من بين الحواضر العلمية العريقة لاحتوائها على جامع الزيتونة[5] الذي بلغ صداه سائر الأقطار الإسلامية شرقا وغربا، والعديد من المساجد والمدارس والزوايا التي لم يقتصر دورها على القاء الدروس، واجتماع الطلبة في حلقات حول شيوخهم فحسب،

---

[1]-سورة الحج، الآية: 27

[2]-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ج2، ط1، 1998م، ص387.

[3]-أبو سالم بن محمد العيّاشي، تعداد المنازل الحجازية (1068هـ/1658م)، تح: عبد الله حمادي الإدريسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2013م، ص68، ص72.

[4]-Ben MessaiB ،itinéraire de Tlemcen a la Mekke ،par: Mohamed Ben Chenab ،Revue Africaine ، volume44, 1900, Alger, p278.

[5]-هو أحد أقدم المعاهد التعليمية والجامعات الإسلامية في شمال افريقيا، تأسس في سنة 79هـ/698م على يد حسّان بن النعمان الغسّاني عندما افتتح مدينة تونس لنشر الدعوة الإسلامية، ثم في سنة 114هـ/732م قام الأمير عبيد الله بن الحبحاب والي افريقية بتوسعته واحكام وضعه على شكل فخم، وقد حظي هذا المعهد بعد ذلك باهتمام السلاطين والخلفاء الذين تعاقبوا على حكم افريقية غير أن الغلبة كانت للأمراء الأغالبة حيث قاموا بإصلاح الجامع وتحسينه وزخرفته واضافة زيادات في الجامع عامة وبيت الصلاة خاصة، واستمرت عمليات تحسينه وترميمه وتوسيعاته عبر تاريخه الطويل ليبقى محافظا على طابعه الأصلي، غير أنه لم يقتصر على العبادة فحسب، بل كان منذ البداية منارة للعلم والتعليم والثقافة على غرار الجوامع والمساجد الكبرى في مختلف مناطق العالم الإسلامي تعقد فيه المجالس والمناظرات العلمية وحلقات التدريس بمختلف مواضيعها، أنظر: محمد بن الخوجة، صفحات من تاريخ تونس، تح: حمّادي السّاحلي، الجيلاني بن الحاج يحيى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1986م، ص283، ص284. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، 1982م، ص163، ص350 .

بل كانت تقدم على غرار التعليم خدمات اجتماعية متنوعة، كالمأوى والمسكن لنزلائها الوافدين من بلاد الأندلس والمغرب ومختلف جهات افريقية[1].

وقد دفعت حاجة الجزائريين الملحّة لتوسيع ثقافتهم المعرفية وتحسين مستواهم العلمي إلى اختيار الوجهة التونسية لاستكمال دراساتهم العليا في مراكزها الثقافية المشهورة، سواء كان ذلك عن طريق الرحلات الفردية، أو عن طريق الرحلات الحجيّة، نذكر من أشهرهم قاسم بن يحي الفكون (ت965هـ/1558م)[2] الذي انتقل مع والده إلى تونس وواصل دراسته بها، ونزل عيسى بن محمد الجعفري الثعالبي (ت1080هـ/1669م) بتونس في طريق رحلته إلى الحج، وأخذ عن علمائها الأجلاء[3] كالشيخ أبي بكر بن تاج العارفين البكري التونسي[4].

كما ارتحل يوسف بن محمد المصعبي المليكي (ت1186هـ/1773م) الذي ينحدر من منطقة وادي ميزاب قرب مدينة غرداية جنوب الجزائر إلى مدينة جربة[5] في سنة 1103هـ/1690م، وتتلمذ فيها على مجموعة من المشايخ من بينهم يحي بن سعيد سعيد الجادوي، وسليمان بن محمد الباروني، والشيخ عمر بن علي السدويكشي[6].

3.2 . الدافع السياسي:

لقد كان للاضطرابات السياسية التي عاشتها الجزائر بسبب الحملات الأوربية المتتالية على المدن الساحلية، وانتشار الفساد بمختلف أشكاله في ظل النظام العثماني أثره في ارتحال عدد كبير من علمائها نحو مناطق مختلفة من بلدان العالم الإسلامي، وخاصة نحو تونس بحثا عن الأمان والاستقرار، مثلما حدث مثلا مع الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد القادر التواتي (ت1031هـ/1622م) الذي هاجر من مدينة قسنطينة واستوطن مدينة باجة التونسية[7]، ومفتي المالكية أحمد بن عمّار الجزائري (ت1206هـ/1791م)[8] الذي اضطر إلى مغادرة الجزائر نحو تونس في سنة 1195هـ/1782م، وقرّر الاستقرار بها.

---

[1]-للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع أنظر: محمد الطاهر بن عاشور، إصلاح مدارس الطلبة بتونس، المجلة الزيتونية، مج6، ع3، تونس، جويلية/أوت، 1945م، ص366.

[2]-عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تح: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1987م، ص43.

[3]-محمد أمين المحبّي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، بيروت، ج3، ط1، (د، ت)، ص241.

[4]-هو عالم وإمام تونس، وخطيبها بجامع الزيتونة، جلس لإقراء البخاري في الحديث الشريف بجامع الزيتونة وعمرة 17 عاما، خلف والده في منصب الإمامة والخطابة، توفي في سنة 1072هـ/1661م، أنظر: محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تح: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج1، ط1، 2003، ص442.

[5]-وهي جزيرة في إفريقية تقع جنوب شرق تونس في خليج قابس، تبلغ مساحتها حوالي 514 كلم مربعا، وقد وصفها الحضيكي في رحلته قائلا: «وهي ذات نخيل وفواكه ومياه كثيرة، تشتمل على طوائف...»، أنظر: محمد بن أحمد الحضيكي السوسي، الرحلة الحجازية، تح: عبد العالي لمدبر، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، ط1، 2011م، ص88 .

[6]-إبراهيم بن بكير بحاز وآخرون، معجم أعلام الإباضية من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج2، ط1، 1999م، ص491.

[7]-عبد الكريم الفكون، مصدر سابق، ص59.

[8]-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، مرجع سابق، ص224.

كما كان طلب الرزق والرغبة في ممارسة التجارة عاملا مغريا لجذب عدد من الرّحالة الجزائريين إلى تونس، خاصة إذا علمت أن هذه الأخيرة كانت محطة رئيسية تقصدها القوافل التجارية من شرق الجزائر وغربها؛ فكانت الفرصة ثمينة ليجمع هؤلاء بين النشاط التجاري وتحصيل العلم ونشره.

3.الإسهامات العلمية للرّحالة الجزائريين بالبلاد التونسية:

أسهم عدد هام من الرّحالة الجزائريين بدور فاعل في الحياة الثقافية والعلمية خلال المدة التي قضوها بتونس في القرنيين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين (17-18م)، وأثرّوا في علمائها وطلبتها بشكل إيجابي حتى غدت تونس بفضل مجهوداتهم محط أنظار الكثير من علماء العالم الإسلامي، وقبلة لرواد العلم والمعرفة، بل أصبح البعض من هؤلاء الجزائريين نواة أساسية وجزء لا يتجزأ من المجتمع التونسي، ومن صور هذه الإسهامات، والتأثيرات العلمية الجزائرية ما يلي:

3. 1. حلقات التدريس:

لقد حرص علماء الجزائر المرتحلين إلى البلاد التونسية خلال القرنيين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين (17و18م) على نشر العلوم المختلفة وتعليم النشء وتخريج نخبة من العلماء والفقهاء والأدباء بعد تمكنهم من إثبات جدارتهم في تولي مثل هذه الوظائف، فكانت لهم مجالس ثابتة وحلقات منتظمة داخل أروقة جامع الزيتونة، والعديد من المؤسسات التعليمية المعروفة، ومن أشهر هؤلاء المدرسين أبو زكرياء يحي بن محمد الفكون القسنطيني الذي ارتحل على كبر سنه إلى تونس وصاهر فيها الشيخ حسين الزلديوي التونسي الذي استخلفه في إمامة الزيتونة، ثم استقل بها إلى تاريخ استشهاده على يد النصارى الإسبان وهو يدّرس ويروي صحيح البخاري بالجامع الأعظم سنة 941هـ/1534م[1].

ومحمد التواتي (ت1031هـ/1622م) الذي استقر به المقام بمدينة باجة كما ذكرنا سابقا، وشاع خبره فيها ووقع له القبول عند عامتها وأهل باديتها، وانتصب للتدريس بمدرسة الباي أبي الحسن علي باشا بالعاصمة تونس، وبمدينة باجة كذلك إلى أن توفي بالطاعون[2]. واستمر نشاط هذه الأسرة في سلك التعليم بتولي ابنه الفقيه محمد العربي (ت بعد 1149هـ/1736م) التدريس بالجامع الكبير في تونس، فأفاد وأجاد، وتخرّج على يديه خلق كثير[3].

وكان شيخ الإسلام أبو يحي الأنصاري الرّصاع التلمساني الأصل ثم التونسي الدار (ت1034هـ/1624م)[4] قد تنازل عن وظيفة الفتوى في سنة 1017هـ/1608م وتفرغ للتدريس بجامع الزيتونة، فأسهم بجهود كبيرة في تنشيط حلقات الدروس في الفقه والعربية والتفسير والأصول، وانتفع به خلق كثير من طلبة العلم أمثال محمد تاج العارفين، وأبي الفضل المسراتي الذي كان مفتيا عالما بالفقه المالكي، والنوازل المالكية والحنفية[5].

---

[1]-عبد الكريم الفكون، مصدر سابق، ص42، 43.

[2]-أحمد جعفري، العلاقات الفكرية والثقافية بين إقليم توات وحواضر المغرب الإسلامي، الملتقى الوطني الأول، قسم اللغة العربية، الجامعة الإفريقية (أدرار)، 2009م، ص6.

[3]-نفسه، ص7.

[4]-أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الدار العربية للكتاب، تونس، مج4، ج7، 1999م، ص66.

[5]-حسين خوجة، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تح: الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1900م، ص186.

ومثله أيضا الشيخ أبو محمد حمودة الأنصاري الرّصاع الذي نذر نفسه للتعليم، حيث تولى التدريس بجامع الزيتونة عند باب الشفاء، ورواية صحيح البخاري ليلا بمسجد باردو، ومشيخة المدرسة الحسينية الكبرى بعد سنة 1139هـ/1726م، وقد مدحه صاحب كتاب مسامرات الظريف بقوله: «ولم تزل دروسه مُناخا لرحال الطالبين وفتاويه العذبة غاية آمال المستفتين»[1].

كما توّجه الحسين بن محمد الورثيلاني[2](ت1193هـ/1778م) إلى تونس في طريق رحلته إلى الحج سنة 1179هـ/1766م، وتولى التدريس في كل من قابس وصفاقس، في مختلف العلوم، وتخرج على يديه عدد كبير من الطلبة والمشايخ، وفي ذلك يقول: «وطلبوا منا البحث في بعض النوازل من مشكلات الفنون وقوانين العلوم فأسعفتهم على ذلك بحسب ما فتح لي الوهب الرباني والمنح الفرداني...لا سيما لما رأوا بعض المؤلفات لنا»[3].

أمّا محمّد بن يوسف المصعبي المليكي (ت1207هـ/1792م) فقد تصدر لرئاسة مجالس التدريس والإفتاء بمساجد جزيرة جربة بعد عودته من مصر، وانتفع به عدد كبير من طلبة العلم[4]، ونظرا لمكانته العلمية التي تميّز بها اختاره مجلس الشورى رئيسا للوفد الذي أُرسل إلى تونس لمناظرة علمائها بحضرة الباي وقتئذ.

وهاجر الشيخ الطاهر بن مسعود من قبيلة أولاد سيدي عيسى بالجزائر إلى تونس لطلب العلم بجامع الزيتونة، وأخذ عن علماء أجلاء كصالح الكواش، وأحمد بوخريص، وعمر المحجوب، ولما استوى عوده وبلغ
درجة كبيرة من النضج العلمي تقدّم لمشيخة المدرسة السليمانية[5] بعد وفاة شيخها الغرياني، وأقرأ بها فنونا عديدة لمدة طويلة تقارب الأربعين سنة، وتصدر لإمامة الجامع الأعظم إلى أن وافته المنية بالطاعون سنة 1234هـ/1821م[1].

---

[1]-محمد بن عثمان السنوسي، مسامرات الظريف بحسن التعريف، تح: محمد الشاذلي النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ج2، ط1، 1994م، ص170 .

[2]-هو الحسين بن محمد السعيد المعروف بالورتلاني، نسبة إلى قرية بني ورتلان التي تقع بين سطيف وبجاية، ولد سنة 1125هـ/1713م، ينتمي هذا الرّحالة إلى أسرة شريفة اشتهرت بالعلم والتصوف والتدريس، حفظ القرآن الكريم في المدرسة التي كان يديرها والده في سن مبكرة، وبعد أن شب أصبح يتردّد على الزوايا ومعاهد العلم في جهات عديدة من مناطق الجزائر، فتعلم الفقه والنحو ثم أضاف إلى ذلك علمي التصوف والتوحيد، ولا شك أنه نال حظا من اللغة العربية والأدب والعروض والتاريخ، وبعد تمكنه من علوم عصره وتضلعه فيها أصبح شيخ زاوية الأسرة، تخرج على يديه عدد كبير من الطلبة الذين تولوا بدورهم وظائف سامية، ولم يكتف بذلك بل صار يذهب إلى بجاية في كل سنة للتدريس في شهر رمضان، وهكذا أصبح الورثيلاني كجده ووالده من علماء المنطقة البارزين، ومن الذين يدين لهم الناس بالاحترام والطاعة الروحية، حجّ الورثيلاني ثلاث مرات؛ الأولى كانت في سنة (1153هـ/1740م)، والثانية سنة (1166هـ-1752م)، والثالثة سنة (1179هـ-1765م)، ووثق صلته خلالها بعلماء تونس وطرابلس ومصر ومكة والمدينة المنورة، فحضر مجالسهم وحلقاتهم، ومن جملتهم الشيخ الهماق، وعلي الصعيدي، والجوهري، والنفراوي، والبليدي، وخليل الأزهري، ولما عاد إلى وطنه اشتغل بالتعليم والتأليف إلى أن وافته المنية في سنة 1193هـ/1778م ودفن قرب زاويته ببني ورتلان، وقد خلف الورتلاني عدة مؤلفات وشروح ضاع أكثرها، من أشهرها رحلته المسماة "نزهة الأنظار"، أنظر: محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، ج2، 1906م، ص133-140. سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص394-398.

[3]-الحسين الورثيلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1908م، ص653، 656.

[4]-إبراهيم بحاز، ج2، مرجع سابق، ص406.

[5]-أنشأها سليمان باي بن علي باشا مكان فنادق قديمة بالقرب من جامع الزيتونة سنة 1168هـ/1754م، وجعلها وقفا على طلبة العلم من المالكية، ومن أشهر مدرسيها الشيخ أبو عبد الله محمد بن خليفة الغرياني الذي درّس فيها حوالي سبع وعشرين سنة، وأحمد بن حسين القمّار، والطيب النيفر، أنظر: محمد

كما أثرى بجهوده الفكرية المكتبات التونسية بمؤلفات نفيسة منها شرحه "للرسالة السمرقندية" في علم البيان كان يعتمد عليها في دروسه[2].

ومن العلماء الجزائريين الذين أسهموا في هذا المجال أيضا الشيخ محمد البشير (ت1240هـ/1827م) أصله من جبال زواوة، تولى التدريس بتونس[3] ومن أبرز تلامذته المؤرخ التونسي أحمد بن أبي الضياف[4] الذي قرأ عليه تفسير ابن فرس، والشيخ القاضي أحمد العوادي (ت1241هـ/1828م) الذي ينحدر من قبيلة عوادي بقسنطينة، وقد اشتغل بالتدريس في الجامع الأعظم، ثم تولى خطة القضاء بماطر[5].

واقتفى حمودة بن الشريف الجزائري المعروف بالمقايسي (ت1245هـ/1832م) أثر أقرانه في عالم التدريس، حيث أنه أقرأ أهل تونس في طريق عودته من بلاد المشرق، وقد طلبوا منه البقاء عندهم، ووعدوه بتوفير كل ما يحتاجه، إلا أنه رفض ذلك وأصر على العودة إلى بلاده[6].

2.3. منح الإجازات العلمية:

تعادل الإجازة العلمية في ذلك الوقت الشهادة الجامعية بمفهومها المعاصر، وهي عبارة عن رخصة أو إذن بالتدريس والإفتاء، يسمح فيها الشيخ العالم للطالب أو التلميذ بأن يروي عنه حديثا أو كتابا أو علما درسه عليه، وتمنح بطريقتين؛ إحداهما بالمشافهة والثانية بالتحرير[7].

وقد كانت الإجازة آنذاك ضرورة علمية لازمة في الأوساط العلمية ببلاد المغرب الإسلامي، حرص عليها العالم لضمان انتشار علمه سليما خاليا من التحريف والأخطاء، وواظب على طلبها المتعلم لينال علما صحيحا لا شك في نسبته إلى صاحبه، ويكسبه ثقة الناس في تحصيله العلمي[8].

الباجي بن مامي، مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني (القرن السابع إلى القرن الثالث عشر الهجري)، المعهد الوطني للتراث، تونس، 2006م، ص338.

[1]- محمد بن عثمان السنوسي، مسامرات الظريف بحسن التعريف، تح: محمد الشاذلي النيفر، دار الغرب الإسلامي، ج1، ط1، 1994م، ص237.

[2]-نفسه، ص238.

[3]-خير الدين شترة، المهاجرون الجزائريون إلى البلاد التونسية، دار كردادة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م، ص358.

[4]-هو أبو العباس أحمد بن الحاج بالضياف بن عمر بن أحمد بن نصر الباهي العوني، فقيه أديب وسياسي مؤرخ، ولد في تونس سنة 1217هـ/1802م ونشأ في كنف والده الذي صرف كامل عنايته لتربيته وتعليمه، زاول دراسته على أيدي نخبة من مدرسي جامع الزيتونة البارزين في تلك الفترة أمثال أحمد بن محمد بن الخوجة، ومحمد البحري، وإبراهيم الرياحي، ومحمد بيرم الثالث، ولما امتلئ بالعلم حوضه تولى الوظائف السياسية حيث باشر خطة التوثيق (العدالة) وهو في سن الثمانية عشر عام 1237هـ/1822م، ثم ترقى إلى منصب الكتابة بديوان الحكومة سنة 1241هـ/1826م، كما كلف بمهام سياسية في استانبول وفرنسا في عهد المشير الأول أحمد باشا باي، له عدة مؤلفات منها كتابه المشهور "إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان"، و"المقامة البشرية في الأنوار البشيرية"، توفي سنة= =1291هـ/1874م، أنظر: حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر في المصنّفات والمؤلفين التونسيين، مرا: محمد العروسي المطوي، بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، مج2، ق1، ط1، 2005م، ص559.

[5]-خير الدين شترة مصدر سابق، ص359.

[6]-محمد الحفناوي، مصدر سابق، ص142.

[7]-عبد الله فياض، الإجازات العلمية عند المسلمين، مطبعة الإرشاد، بغداد، ط1، 1967م، ص21.

[8]-محمد عادل عبد العزيز، التربية الإسلامية في المغرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1987م، ص35.

ولم تكن الإجازة بالشيء الهيّن أو اليسير كما نعتقد، فتمنح لمن أرادها، بل على العكس تماما، فقد كانت لا تعطى للطالب إلا بعد طول ملازمته لشيخه والأخذ عنه مباشرة، وإثبات سعة معرفته، وبراعة تعلمه،

وتمكنه من مادته، وإحاطته بالتخصص الذي يريد أن يجازى فيه[1].

ولما أظهر العلماء الجزائريون نبوغهم في العديد من العلوم، وتضلعهم في ألوان مختلفة من المعرفة، واشتهار أسمائهم في بلدان المغرب والمشرق العربيين توافد على مجالسهم العلمية عدد كبير من الطلبة التونسيين، وتسارع إلى لقاءهم والتواصل معهم كبار علماء ومشايخ تونس من أجل الحصول على الإجازات العلمية منهم، والافتخار بها، ولنا في هذا المجال عدة نماذج نذكر منها إجازات الرّحالة الجزائري أحمد المقرّي التلمساني[2] لبعض علماء تونس المشهورين عند نزوله بمدينة سوسة[3] في طريق رحلته إلى الحج، فقد كتب إليه الشيخ أبا عبد الله محمد تاج العارفين التونسي[4] إمام وخطيب جامع الزيتونة يطلب منه الإجازة، فأجازه المقرّي نظما في قصيدة فاقت الأربعين بيتا من البحر الطويل، وذلك في شهر صفر من سنة 1028هـ/1619م، وهو على وشك أن يركب البحر مواصلا رحلته صوب مصر[5]، وأذن له فيها برواية جميع مؤلفاته ومروياته[6]، كما استعرض عددًا من الفهارس التي تضم بعض الأسانيد، وممّا جاء فيها[7]:

أَجَزتُـــك تَاج العارِفيـــــن جميعَ ما رَويتُ عَـــنْ أَعـــــلام الهُـدى قَـلا أو كثُـــرَا
مُجـــازًا ومَـــقرُوًّا وإذْنـــــــا بشَرطِـــــه وكـــُلّ الذي لَفّقتـــُـه نَظْـــما أَو نثـــْرَا

---

[1]-ذياب بن سعد آل حمدان الغامدي، الوجازة في الأثبات والإجازة، دار قرطبة، بيروت، لبنان، ط1، 2007م، ص23.

[2]-هو شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمّد بن أحمد بن يحي بن محمد المقرّي التلمساني، ولد عام 986هـ/1572م بمدينة تلمسان ونشأ بها، ثم انتقل إلى بلاد المغرب الأقصى، وعاش فيها مدة، فزار فاس ومراكش وأكمل تحصيله العلمي والمعرفي فيهما، وذلك بالاشتغال بالقراءة وحضور مجالس العلماء ومخالطتهم، وتأليف الكتب، كما تولى مناصب عالية كالقضاء، والفتوى، والخطابة في جامع القرويين،= =واشتهر بين العامة والخاصة، وبعد مرور 14 عاما قرّر المقري السفر إلى بلاد الحرمين الشريفين لأداء مناسك الحج بعد أن استأذن من مَلِك المغرب آنذاك، وقد سنحت له هذه الفرصة بزيارة عدة مدن مشرقية كالقاهرة، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة، والقدس، ودمشق، وبث العلم فيها، واستطاع أن يحقق الشهرة التي يستحقها بأعماله الجليلة التي أنجزها، توفي في سنة 1041هـ/1631م ودفن بمقبرة المجاورين في مصر، ترك المقري ثروة هائلة من المؤلفات في مختلف البلدان التي زارها في مواضيع عدة كالأدب والتاريخ والفقه والعقائد، أنظر: محمد أمين المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، بيروت، لبنان، ج1، ط1، (د، ت)، ص302. أحمد المقري، رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، تح: محمد بن معمر، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2004م، ص6-11.

[3]-هي مدينة كبيرة عتيقة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط على بعد مائة ميل من تونس، اتخذها المسلمون قاعدة لنائب الوالي لما ملكوها وملكوا الشاطئ، تحيط بالمدينة أسوار جميلة وفيها قصبة كبيرة حصينة، كانت في القديم عامرة متحضرة ذات منازل جميلة ما زال بعضها ماثلا للعيان...الخ، أنظر: حسن الوزان، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، لبنان، بيروت، ج2، ط2، 1983م، ص83.

[4]-هو أبو عبد الله محمد تاج العارفين بن أبي بكر العثماني التونسي، تتلمذ على يد علماء أجلاء منهم؛ الشيخ أبو يحي الرصاع تولى الإمامة بجامع الزيتونة وتوارث أبناؤه وأحفاده هذا المنصب ما يزيد عن مائة وثلاثة وسبعين سنة، وكان له مجلس مهيب بجامع الزيتونة يقرئ فيه "صحيح البخاري"، له رسالة تعرف ب"إعمال النظر الفكري في تحرير الصّاع النبوي التونسي"، يجهل تاريخ ولادته ووفاته إلا أنه كان حيا سنة 1037هـ/1628م، أنظر: ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تح: محمد شمام، المكتبة العتيقة، ط3، تونس، 1967م، ص317. محمد مخلوف، ج1، مصدر سابق، ص425.

[5]-أحمد المقري، رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، المصدر السابق، ص11.

[6]-تعد الإجازة بالرواية أحد أنواع الإجازات العلمية، للمزيد أكثر أنظر: فوزية لزغم، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية(1518-1830م)، المكتبة الجزائرية للدراسات التاريخية، الجزائر، 2011، ص20.

[7]-المقري، الرحلة، المصدر السابق نفسه، ص153.

ويبدو أن هذا اللقاء لم يكن مقتصرا على الإجازة فقط، بل أظهر صورة أخرى من مظاهر الاحترام والصداقة المتبادلة بين العلماء المغاربة، حيث قام تاج العارفين بتقديم هدية لمجيزه فور وصوله إلى مدينة سوسة ثم عزّزها في اليوم الثاني بأخرى، وردّ عليه المقري بقصيدة طويلة يعبّر فيها عن شكره وفرحته وامتنانه لتلك الهدية[1].

وطلب الشيخ أبو القاسم المسراتي[2] من مدينة القيروان[3] كذلك إجازة من المقري بالرغم من شهرته واطلاعه الواسع على مختلف العلوم، وهذا إن دّل على شيء فإنه يدل على رغبة العلماء التونسيين وشغفهم في تحصيل المزيد من المعارف من قبل العلماء الجزائريين، فأجازه المقري بمنظومة شعرية قصيرة من ثمانية أبيات أَذِن له فيها برواية جميع مروياته ومؤلفاته[4].

كما أجاز يحي الشاوي المليانى (ت1096هـ/1685م)[5] الشيخ أبو الحسن علي بن محمد النوري الصفاقسي[6] في سنة 1078هـ/1667م بما رواه عن مشايخه المغاربة في موطأ الإمام مالك، وكتاب الشفا للقاضي عياض، وصحيحي البخاري ومسلم، وحزب البحر للشاذلي، وكتب الشيخ السنوسي وغيرها[7]، وقد ذكر علي النوري في فهرسته أنه لما كتب له الإجازة قال: «مؤرخة بمجموع الاسم واللقب، فعددت حروف يحي الشاوي، فوجدتها ثمانية وسبعين وألف، وذلك هو التاريخ»[8]. وهذا دليل على ذكاء الشيخ الشاوي وفطنته.

---

[1]-نفسه، ص154، 155.

[2]-هو أبو القاسم محمد بن جمال الدين بن خلف المسراتي القيرواني، الشيخ الجليل، العالم الأصولي، أخذ عن المؤلف وأجازه، وعن النور الأجهوري والبكري والثعالبي وغيرهم، حجّ مرات، توفي بمصر سنة 1065هـ، أنظر: محمد مخلوف، ج1، مصدر سابق، ص305.

[3]-هي مدينة أصيلة أسسها عقبة بن نافع قائد الجيوش التي أرسلها عثمان بن عفان إلى شمال إفريقيا، بناها على بعد ستة وثلاثين ميلا من البحر المتوسط، ونحو مائة ميل من تونس، ازدهرت العلوم الإسلامية بالمدينة في فترة من تاريخها حتى إن معظم فقهاء إفريقيا من المتخرجين منها، أنظر: حسن الوزان، ج2، مصدر سابق ص87-91.

[4]-المقري، الرحلة، مصدر سابق، ص176.

[5]-هو أبو زكريا يحي بن محمد بن عيسى بن أبي البركات المليانى الشهير بالشاوي، ولد بمدينة مليانة سنة 1041هـ/1632م ونشأ بها، ثم انتقل إلى مدينة الجزائر وتتلمذ على يد شيوخها البارزين أمثال سعيد قدورة، وعبد الواحد الأنصاري، ومهدي الثعالبي، هذا الأخير الذي اضطر إلى السير معه ثماني مراحل أثناء رحلته إلى المشرق لإتمام قراءته عليه في علم المنطق، وقد ارتحل يحي الشاوي لاحقا إلى أرض الحجاز سنة 1074هـ/1663م لأداء فريضة الحج، ثم رجع إلى القاهرة متصدرا للتدريس بالجامع الأزهر، وأجاز عددا كبيرا من طلبة الشام ومصر والمغرب، كما سافر إلى إسطنبول واجتمع به العلماء للبحث، وترك العديد من المؤلفات في مجالات علمية مختلفة كعلم التوحيد، والنحو، والفقه، والتفسير، وغيرها، أنظر: عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، شركة دار الأمة، الجزائر، ج3، 2009م، ص174.

[6]-أحد أبرز علماء تونس في ق 11هـ (17م)، ولد بتونس سنة 1053هـ/1644م ونشأ بها، ارتحل إلى بلاد المشرق العربي وقرأ بها على كبار علمائها أمثال أحمد السنهوري، وأبو بكر الشنواني، ومحمد الخفاجي، ثم رجع إلى موطنه وصار إماما في كل فن، وانتفع به خلائق لا يحصون، له تآليف كثيرة في علوم شتى منها "غيث النفع في القراءات السبع"، و"منقذ الوصلة في معرفة السنين"، توفي في سنة 1118هـ/1706م، أنظر: محمد مخلوف، ج1، مصدر سابق، ص465.

[7]-محمد مخلوف، نفسه، ص465.

[8]-عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تح: إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج2، ط2، 1982م، ص1133.

وخلال منتصف القرن الثاني عشر الهجري (18م) أجاز أحمد الزروق –بن أحمد بن قاسم البوني–أبو عبد الله محمد بوعتور التونسي جميع ما يجوز له وعنه روايته من مقروء، ومسموع، ومنقول، ومعقول، وأصول وفروع كالموطأ والكتب الستة وغيرها من الجوامع والمسانيد، وختمها بخط يده في 02 شعبان سنة 1159هـ/1746م[1].

وأثناء إقامة الرّحالة أحمد بن عمّار الجزائري[2] في تونس سنة 1195هـ/1786م اتصل بالكثير من علمائها، وتبادل معهم الإجازات والتقاريظ، ومن أشهر تلامذته بها الشيخ إبراهيم السّيالة[3] الذي قام بجمع مروياته وهي تبلغ نحو الكراستين وتسمى "منتخب الأسانيد في وصل المصنفات والأجزاء والمسانيد" فلما رآها ابن عمّار واطلع عليها أجازه بها في سنة 1204هـ/1795م بوضع خطه وختمه عليها[4].

3. 3. المجالس والمناقشات العلمية:

لم تتوقف جهود علماء الجزائر عند منح الإجازات لطلبة العلم التونسيين والراغبين في الاستزادة منه، وتقديم حلقات التدريس، بل تجاوزت ذلك إلى مشاركتهم في عدد من النشاطات العلمية الأخرى كحضور المجالس والندوات العلمية التي كانت تعقد في المساجد والمدارس، ومناقشتهم لمختلف القضايا الدينية واللغوية والتاريخية والفلسفية وغيرها، وفك رموز بعض المسائل الفقهية الغامضة، والرّد على منافسيهم بالحجج والبراهين القاطعة عن طريق المناظرات والحوارات.

نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر أبو عبد الله محمد العطار (ت965هـ/1556م) الذي قصد الإيالة التونسية من أجل التجارة، وأثناء وجوده بالجامع الأعظم لفت انتباهه نقاش بين إمام ومفتي الزيتونة مع طلبته في مسألة تخص بعض العقليات، فأجاب العطار عن المسألة بتلطف، فالتفت إليه الشيخ الإمام ورحب به وأكرمه وأتحفه بالجلوس معه في الحلقة، وقال له: «ومثلك إنمّا يجلس هنا»[5] أو كلاما هذا معناه، وبرّه غاية المبرّة.

---

[1]–الطيب يوسفي، العلاقات العلمية بين الجزائر وتونس خلال العهد العثماني، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم العلوم الإنسانية، جامعة الجيلالي ليابس–سيدي بلعباس، 2020/2019م، ص163.

[2]–هو أبو العباس أحمد بن عمّار بن عبد الرحمن بن عمّار مفتي المالكية في عصره، ولد ونشأ بمدينة الجزائر العاصمة في حوالي سنة 1119هـ/1706م، وتولى منصب افتاء المالكية والخطابة بمسقط رأسه في سنة 1180هـ/1767م، كما تنقّل إلى المشرق عدة مرات، فزار تونس ومصر وجاور بالحرمين الشريفين، وأجاز طلبة كثيرين، ولعل من أشهر تلامذته إبراهيم السيالة التونسي، وأحمد الغزال، ومحمد خليل المرادي الشامي، وأبو راس المعسكري الذي وصفه بأوصاف تدل على علو كعبه في العلوم ونبوغه وتميّزه، وتذكر المصادر التاريخية أن ابن عمار بقي مجاورا في بلاد الحرمين الشريفين إلى أن وافته المنية بعد سنة 1205هـ/1790م، ترك العديد من المؤلفات المتنوعة من بينها شروح وحواشي ورسائل واجازات وتقاريظ، أنظر: محمد أبو راس الناصري الجزائري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تح: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص48، 49. عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تح: احسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج1، ط 1، 1982م. محمد الحفناوي، ج2، مصدر سابق، ص83.

[3]–أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر، ج2، مرجع سابق، ص229.

[4]–عبد الحي الكتاني، ج1، مصدر سابق، ص121، 122.

[5]–عبد الكريم الفكون، مصدر سابق، ص38.

وارتحل القاضي الفقيه محمد بن عبد الرحمن التلمساني إلى المشرق العربي خلال القرن الثاني عشر الهجري (18م)، واستوقفته الطريق بالإيالة التونسية حيث جالس علمائها فأخذوا عنه وأخذ عنهم[1]، ودخل ابن عمار الجزائري في مناقشات ومناظرات حادة مع علماء تونس، ولكنه هاجر منها بعد فترة وجيزة بسبب منافسة العلماء له، ودخول الحسد في بعض النفوس السقيمة[2].

والتقى ابن حمادوش الجزائري[3] بالعلامة التونسي الشيخ محمد الشافعي الباجي في سنة 1159هـ/1746م، وتذاكرا في عدة مسائل منها لغز الشيخ أحمد بن قاسم البوني، وأعطى ابن حمادوش جوابا نثريا مطولا، وجوابا شعريا ضم ثمانية أبيات، وعلق عليه[4].

كما حضر أبو راس الناصري الجزائري[5] في سنة 1790/1199م مجلس العالم التونسي صالح الكوّاش[6] الذي قدح في العلاّمة ابن خلدون، فردَّ عليه النّاصري قائلا: «كفى بابن خلدون مزية أنَّ عالم الدنيا ابن مرزوق الحفيد تلميذه، وأثنَى عليه عِلماً وديناً، وشرحُه للبُردة يدلُّ على غزارة علمه»[7].

---

[1]-عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، 1980م، ص78.

[2]-سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، مرجع سابق، ص229.

[3]-هو عبد الرزاق بن محمد بن محمد المعروف بابن حمادوش الجزائري، ولد بمدينة الجزائر سنة 1107هـ/1695م، وأتم تعليمه الأولي بها، كما حصّل قدرا من العلوم الشرعية كمعاصريه قراءة وإجازة، في علم الفقه والنحو والتصوف والأدب والتاريخ، إلا أنه مال إلى ما يسمى اليوم بالعلوم الرياضية والطبية فأصبح صيدليا وطبيبا وفلكي وفرضي ومنطقي، وقد كان كثير التنقل والأسفار في بلاد المشرق والمغرب العربيين، استهلها بأداء فريضة الحج سنة 1125هـ/1713م، وكرر ذلك مرة ثانية في سنة 1130هـ/1718م، ثم ارتحل إلى المغرب الأقصى لطلب العلم والتجارة معا، ومن بين ما ألفه "كشف الرموز" في الأعشاب والصيدلة، و"الجوهر المكنون" في الطب، وشرحه على السنوسي المسمى "مباحث الذكرى في شرح العقيدة الكبرى"، وبعض المقامات الأدبية، أنظر: عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النّسب والحسب والحال، تح: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983م، ص134-136.

[4]-ابن حمادوش الجزائري، المصدر نفسه، ص134-136.

[5]-هو محمد بن أحمد بن عبد القادر النّاصر الجليلي المعسكري المعروف بأبي راس الجزائري، ولد في سنة 1150هـ/1737م قرب جبل كرسوط بالغرب الجزائري، الجزائري، أخذ بذور تعليمه الأول بمسقط رأسه معسكر، ثم بالمغرب الأقصى فحفظ القرآن الكريم، وتعلم الأحكام ثم الفقه، ولما اشتد عوده وبلغ درجة كبيرة من النضج العلمي اشتغل بمهنة التدريس، ثم تولى القضاء في قرية غريس قرب معسكر، ثم رجع إليها ليزاول التعليم لمدة 36 سنة متتالية، تنّقل بين عدة مدن في الغرب الجزائري، وقام برحلتين إلى الحجاز لأداء الحج، وزار خلالها تونس ومصر وبلاد الشام وفلسطين، وذاع صيته في هذه البلدان بعلمه الواسع وكثرة حفظه، توفي عام 1238هـ/1823م وقد تجاوز سن التسعين، ودفن بعقبة بابا علي بضواحي معسكر، ترك أبو راس ثروة هائلة من التصانيف والتآليف في العديد من العلوم والفنون التي لا يضاهيه فيها= =من الجزائريين أحد باستثناء أحمد البوني الذي بغلت تآليفه المائة، أنظر: أبو راس النّاصري، مصدر سابق، ص11، 12، سميرة أنساعد، الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري من القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر الهجريين (القرن17-19م)، الوكالة الإفريقية للإنتاج السينمائي والثقافي، الجزائر، ط1، 2011، ص41 .

[6]-هو الفقيه الأصولي أبو الفلاح صلاح بن حسين الكواش التونسي الكافي، ولد بتونس سنة 1137هـ/1724م بعدما انتقلت إليها أسرته من مدينة الكاف، ودرس بجامع الزيتونة على الشيخ محمد الغرياني وعبد الكبير الشريف وحمودة الريكلي ومحمد بيرم الأول وغيرهم، ارتحل إلى طرابلس الغرب لطلب العلم فختم بها الشفا على الشيخ محمد التاودي بن سودة الفاسي وقرأ التفسير والحديث على الشيخ محمد أكنسوس المغربي، ثم عاد إلى تونس ليتولى مشيخة المدرسة المنتصرية في سنة 1762م ويُدرس بجامع الزيتونة أيضا، أخذت عنه جماعة كإبراهيم الرياحي وأحمد زروق الكافي ومحمد السنوسي وصالح بن محمد الفلاني السوداني، توفي في سنة 1216م/1803م ودفن خلف ضريح الإمام بن عرفة جوار المغارة الشاذلية بتونس، من أشهر مؤلفاته "ثبت مروياته"، و"شرح على الصلاة المشيشية"، أنظر: محمد مخلوف، ج1، مصدر سابق، ص524 .

[7]-أبو راس الناصري، مصدر سابق، ص109، ص110.

وتجدر الإشارة إلى أنه خلال الفترة التي زار فيها أبي راس المعسكري تونس كانت الصراعات والخلافات السياسية بين الجزائر وتونس قد بلغت حدتها[1]، لكن على ما يبدوا أنّ ذلك لم يؤثر على العلاقات الثقافية بين الإيالتين إطلاقا، وهو ما تجلى في ترحيب حمودة باشا باي تونس لأبي راس الجزائري وتقريبه من مجلسه وتكريمه لعلو شأنه[2].

كما قدّم لنا العالم الجزائري في رحلته أمثلة حيّة للقاءاته العلمية واتصالاته مع بعض مشايخ تونس في المدن التي زارها، وما نتج عنها من تبادل الخبرات والمعارف والآراء وغيرها من مظاهر التفاعل الثقافي، ويأتي على رأس هؤلاء الحسين الورثيلاني الذي سجل في رحلاته الثلاث إلى تونس ترجمة لعدد كثير من الأعلام الذين التقى بهم فيها، من بينهم العالم المغربي عبد القادر الفاسي وأحمد الزربي اللذان زارهما في مدينة توزر[3]، والشيخ المنصوري الذي اشتهر بعلمه وفقهه في مدينة قفصة، وكذا الشيخ أحمد بن نفيس وهو من أهل التصوف[4].

وأمّا مدينة صفاقس[5]فقد جلس فيها للمباحثة مع بعض الفقهاء في مسائل تتعلق بعلم الكلام والفقه والنحو، وكشف عن ثقافته الواسعة في فنون مختلفة، ممّا جعله يحظى بمكانة مرموقة في تلك النواحي، ومقصدا للطلبة والباحثين للاستفادة من علمه[6].

3.4. التقاريظ[7]:

4. يعتبر التقريظ فن من فنون النثر الأدبي، وتسيطر فيه الروح الإخوانية على الأسلوب، وتبرز ثقافة الكاتب الأدبية واللغوية سواء في موضوعات فقهية أو أدبية أو غيرهما، ويمزج المقرظ في تقريظه بين الشعر والنثر[8].

ومن أبرز العلماء الجزائريين الذين تواصلوا مع أقرانهم من التونسيين بواسطة هذا اللون من النثر وبرعوا فيه الرّحالة أحمد بن عمار الذي ربطته صداقات حميمية بأدباء عصره وعلمائه، فكان يطلّع على إنتاجهم ويباركه بعبارات المدح والاستحسان، ولعل من

---

[1]–حسن حسيني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، دار الكتب العربية الشرقية، تونس، ط3، 1953م، ص158. رشاد الإمام، سياسة حمودة باشا في تونس (1782–1814م)، رسالة قدمت إلى دائرة التاريخ في الجامعة الأميركية في بيروت وهي من متطلبات الحصول على درجة دكتوراه في الفلسفة، ص414، ص415.

[2]–أبو راس الناصري، مصدر سابق، ص115.

[3]–هي قاعدة بلاد الجريد من عمالة تونس، هي بلدة عظيمة كثيرة النخل مع جودة تمرها إذ لا نظير له، قوية المياه فيها أنهار، وماؤها عذب، أنظر: أحمد بن ناصر ناصر الدرعي، الرحلة الناصرية (1709–1710م)، تح: عبد الحفيظ ملوكي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ج1، ط1، 2011م، ص159 .

[4]–الحسين الورثيلاني، مصدر سابق، ص126.

[5]–هي مدينة عتيقة بناها الأفارقة على ساحل البحر المتوسط أيام كانوا يحاربون الرومان، وهي مدينة كبيرة محاطة بأسوار عالية متينة، أنظر: حسن الوزان، ج2، مصدر سابق، ص87 .

[6]–الحسين الورثيلاني، المصدر نفسه، ص 656، 657.

[7]–التقريظ هو مدح الإنسان حيا بحق أو باطل، وهما يتقارظان المدح أي يمدح كلّ صاحبه، وعليه فالتقريظ يستخدم للدلالة على مدح شخص ما لكتاب معين أو لمؤلفه أو لهما معا، وهو أسلوب درج عليه الأقدمون وسار عليه من جاء بعدهم، حيث يعطي المؤلف كتابه لشخصية علمية بارزة كي يقرظه له، أنظر: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، إش: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط8، 2005م، ص697. عبد الله أحمد اليوسف، فن صناعة التقريظ (منهجية الدكتور الفضلي نموذجا)، المملكة العربية السعودية، ط1، 2009م، ص19.

[8]–أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، مصدر سابق، ص182، 183.

أشهر تقاريظه هو الذي وجّهه لصديقه التونسي الحاج حمودة بن عبد العزيز (ت1202هـ/1787م)[1]، بخطه وختمه[2] بعد اطلاعه على رسالته في علم الكلام بطلب من المعني نفسه، وذلك بتاريخ صفر سنة 1196هـ/1781م أيام إقامته بتونس.

ويمكن تقسيم التقريظ إلى خمس فقرات أساسية هي:

الفقرة الأولى: وهي عبارة عن ديباجة استهل بها ابن عمار تقريظه، وأظهر فيها براعته وتفننه، وفيها إشارات إلى موضوع الرسالة المتمثل في وحدانية الله والحديث عن صفاته.

الفقرة الثانية: تبدأ من قوله "أما بعد" وفيها يمدح ابن عمار الرسالة بأوصاف الدقة والتحقيق، كما مجد صاحب الرسالة ووصفه بأوصاف السلطة وبكونه "زين الوزراء والكتاب ."

الفقرة الثالثة: تتضمن أيضا مدح ابن عمار للرسالة وصاحبها، ويبدأ ذلك من قوله: «فرأيتها قد حازت قصب السبق في مضمار الإجادة وميدان الإصابة»، وذكر أن أمثال ابن عبد العزيز لا يجود بهم الدهر إلا نادرا.

الفقرة الرابعة: أثنى فيها على الرسالة وصاحبها بعبارات شعرية في اثني عشر بيتا من البحر البسيط، بدأها بقوله:

شَمْسٌ تَجَلَتْ فَمَا أَسْنَى تَجَلِيهَا لاحَتْ على غَرّة الدُنيَا تَجَلِّيهَا

الفقرة الخامسة: تبدأ من قول ابن عمار «إيه أيّها الساري ولا رفيق...»، وهي أجود ما خطه قلم ابن عمار في هذا الشأن، فقد جاء فيه بمعاني سامية وألفاظ جميلة وصور رائعة وإبداعات من المحسنات البلاغية، تنوه بصاحب الرسالة على أنه من المدافعين عن السنة الشريفة والرادين على الجهلة، كما اغتنم الفرصة ليدعو للباي بالشفاء، ونوه بولي عهده وبالدولة الحسينية[3].

5. خاتمة:

خرجنا في خاتمة هذه الورقة البحثية بجملة من النتائج، نوردها كالتالي:

-تبين لنا أنّ رحلات العلماء الجزائريين إلى البلاد التونسية خلال القرنيين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين (17 و18م) قد تحكمت فيها عوامل مختلفة، ودوافع متداخلة، فكثيرا ما اقترن فيها الغرض الدّيني بالغرض العلمي، إذ مثّل الحج في تلك الفترة الوسيلة الأمثل أمامي طالبي العلم للتعرف على العلماء والأخذ عنهم، والسعي لنيل الإجازات منهم، كما ارتبطت رحلة الحج أيضا بالعامل الجغرافي، فقد كانت حاضرة تونس واحدة من أهم محطات العبور في الفضاء المغاربي باتجاه الحجاز، ونقطة عبور إلزامية للرحلات البرّية والبحرية على حد سواء.

-كما أظهرت لنا الدراسة بأنّ أعلام الفكر الذين ارتحلوا إلى حاضرة تونس للاستزادة من العلوم والنهل من ينبوع علمائها والتعمق في البحث والتحقيق قد ساهموا بدورهم في ازدهار الحياة الثقافية من خلال ترأس حلقات التدريس، وإفادة الطلبة والعلماء

[1]-هو أبو محمد حمودة بن عبد العزيز، عالم ومؤرخ تونسي، درس على مشايخ جامع الزيتونة أمثال أبي الفضل قاسم المحجوب، ومحمد بيرم الأول، ومحمد الماكودي، تولى الوظائف السياسية والإدارية إلى جانب التدريس، له مجموعة من المؤلفات أشهرها الكتاب الباشي، ورسالة في القبلة، وديوان شعر، أنظر: ابن أبي الضياف، ج7، مصدر سابق، ص22.

[2]-حمودة بن محمد بن عبد العزيز، الكتاب الباشي، تح: محمد ماضور، الدار التونسية للنشر، ج1، 1970م، ص19.

[3]-أبو القاسم سعد الله، تقريظ للمفتي ابن عمار ظروفه ونصه، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ع65، س27، الأردن، عمان، جمادى الأولى-شوال 1424هـ/ 1424هـ/ تموز-كانون الأول 2003م، ص243.

التونسيين، وذلك لما امتازوا به في دروسهم التي كانوا يلقونها على شكل مذكرات ومفاوضات علمية، والتعمق في دراسة العلوم الفقهية والنحوية والعقائدية وتبادل للأسئلة والأجوبة وغيرها.

-أنّ الرحالة الجزائريين الذين استقروا بشكل دائم في البلاد التونسية لم يعيشوا في جماعات منعزلة منطوية على نفسها، وإنما اندمجوا مع المحيط الجديد وتأقلموا مع ظروفه وأحواله وتجاوبوا مع متطلباته وحاجاته، واختلطوا بأهلها الأصليين فأثر كل طرف على الآخر، وشكلوا مع مرور الوقت جزء لا يتجزأ من المجتمع التونسي.

-ساهمت الحوارات والنقاشات العلمية التي خاضها الرّحالة الجزائريون مع أقرانهم من التونسيين في فتح مجال واسع للتأثر والتأثير بالآخر، وإبراز للقدرات العلمية، وإثبات الذات .

-حظي علماء الجزائر أثناء تواجدهم في الإيالة التونسية بمكانة مرموقة، وبمنزلة أدبية رفيعة مكنتهم من إبداء رأيهم في المصنفات العلمية عن طريق التقاريظ.

-كما شجعت اللقاءات العلمية بين مشايخ تونس والجزائر على تأصيل الروابط الثقافية ومدّ جسور التواصل الفكري والحضاري بين القطرين.

ويمكننا أن نقترح إقامة ندوات وملتقيات علمية سنوية بشأن تطور الرحلات عبر التاريخ، ودعم المراكز البحثية في الجزائر، والمختصين من الباحثين للعناية بتحقيق التراث الإسلامي لعلماء الجزائر عبر مختلف العصور ونشره.

وتوجيه الباحثين المقبلين على إعداد وتقديم مذكرات أو رسائل أو أطروحات نحو الأدب الجزائري الحديث ففيه من الرحلات ما يستوجب نفض الغبار عنها، بتحليلها، ودراستها، وإخراجها إلى النور، والتعريف بها.

6.قائمة المراجع:

- المؤلفات:

1-ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق: محمد شمام، (تونس: المكتبة العتيقة، 1967).

2-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998).

3-أبو سالم بن محمد العياشي، تعداد المنازل الحجازية (1068هـ/1658م)، تحقيق: عبد الله حمادي الإدريسي، (لبنان: دار الكتب العلمية، 2013).

4-إبراهيم بن بكير بحاز وآخرون، معجم أعلام الإباضية من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1999).

5-أحمد المقري، رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، تحقيق: محمد بن معمر، (الجزائر: مكتبة الرشاد، 2004).

6-أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، (تونس: الدار العربية للكتاب، 1900).

7-أحمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الناصرية الكبرى 1709-1710م، تحقيق: عبد الحفيظ ملوكي، (أبو ظبي: دار السويدي، 2011).

8-الحسين الورثيلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، (الجزائر: مطبعة بيير فونتانة الشرقية، 1908).
9-السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1982).
10-حسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي، محمد الأخضر، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983).
11-حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر في المصنّفات والمؤلفين التونسيين، مراجعة: محمد العروسي المطوي، بشير بكوش، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2005).
12-حسين خوجة، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق: الطاهر المعموري، (تونس: الدار العربية للكتاب، 1900).
13-حمودة بن عبد العزيز، الكتاب الباشي، تحقيق: محمد ماضور، (تونس: الدار التونسية للنشر، 1970).
14-خير الدين شترة، المهاجرون الجزائريون إلى البلاد التونسية، (الجزائر: دار كردادة، 2013).
15-ذياب بن سعد آل حمدان الغامدي، الوجازة في الأثبات والإجازة، (لبنان: دار قرطبة، 2007).
16-سميرة أنساعد، الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري من القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر الهجريين (17-19م)، (الجزائر: الوكالة الإفريقية للإنتاج السينمائي والثقافي، 2011).
17-عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، (بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية، 1980).
18-عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات والمعاجم والمشيخات والمسلسلات، تحقيق: إحسان عبّاس، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1982).
19-عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، (الجزائر: شركة دار الأمة، 2009).
20-عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النّسب والحسب والحال، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، (الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1983).
21-عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف من ادعى العلم والولاية، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1987).
22-عبد الله أحمد اليوسف، فن صناعة التقريظ (منهجية الدكتور الفضلي نموذجا)، (المملكة العربية السعودية: 2009).
23-عبد الله فياض، الإجازات العلمية عند المسلمين، (بغداد: مطبعة الإرشاد: 1967).
24-فوزية لزغم، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية 1518-1830م، (الجزائر: المكتبة الجزائرية للدراسات التاريخية، 2011).
25-محمد أبو راس الناصري الجزائري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق: محمد بن عبد الكريم الجزائري، (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986).
26-محمد الباجي بن مامي، مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني (القرن السابع إلى القرن الثالث عشر الهجري)، (تونس: المعهد الوطني للتراث، 2006).
27-محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، (الجزائر: مطبعة بيير فونتانة الشرقية، 1906).
28-محمد أمين المحبّي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، (بيروت: دار صادر).

29-محمد بن أحمد الحضيكي، الرحلة الحجازية، تحقيق: عبد العالي لمدبر، (الرباط: دار الأمان، 2011).
30-محمد بن الخوجة، صفحات من تاريخ تونس، تحقيق: حمّادي السّاحلي، الجيلاني بن الحاج يحي، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1986).
31-محمد بن عثمان السنوسي، مسامرات الظريف بحسن التعريف، تحقيق: محمد الشاذلي النيفر، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1994).
32-محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، (لبنان: مؤسسة الرسالة، 2005).
33-محمد عادل عبد العزيز، التربية الإسلامية في المغرب، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987).
34-محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تحقيق: عبد المجيد خيالي، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2003).

- الرسائل والأطروحات:

35-الطيب يوسفي، العلاقات العلمية بين الجزائر وتونس خلال العهد العثماني، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس، 2020/2019.
36-رشاد الإمام، سياسة حمودة باشا في تونس (1782-1814م)، رسالة مقدمة للحصول على درجة الدكتوراه في الفلسفة، الجامعة الأمريكية، بيروت.

- المقالات:

37-أبو القاسم سعد الله، تقريظ للمفتي ابن عمار ظروفه ونصه، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ع65، س27، الأردن، عمان، 2003.
38-محمد الطاهر بن عاشور، إصلاح مدارس الطلبة بتونس، المجلة الزيتونية، مج6، ع3، تونس، 1945.
39- Mohamed Ben Chenab, Ben MessaiB ،itinéraire de Tlemcen a la Mekke ، Revue Africaine ، volume44, Alger, 1900.

- المداخلات:

40-أحمد جعفري، العلاقات الفكرية والثقافية بين إقليم توات وحواضر المغرب الإسلامي، 2009، الجامعة الإفريقية، أدرار، الجزائر.